مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (22) العدد (15) 2000
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research –Arts and Humanities Science Series Vol. (22) No (15) 2000

صور الأمومة في لوحة الفرس

الدكتور عبد الكريم يعقوب*
ملكي عيد**

(قبل للنشر في 2000/11/19)

☐ الملخّص ☐

تعدّ الفرس الأمّ من أشهر أنماط الأمومة التي تواجه الدّارس في النصوص التي تصور الفرس، وتتحرّى تفاصيلها، إذ قدمها لنا الشاعر حاملة رموزاً كثيرة ومتعددة، منها: (الأم المبدعة التي تحقق فعل التجاوز، والأم الحياة الهادئة التي يتهددها القدر، وتلاحقها الأهوال، ولكنها تنتصر على الرغم من كل الصعاب، والأم الحاملة قيم العزة والكرامة، مضافاً إليها الحنان والعطف والأم المبشرة بالخصب، والأم الرؤوم التي تنقذ الصغار، وتمنح الحياة، والأم التي يتيمن بها الجاهلي.

وربطها الشاعر بكائنات أمات أخرى، مستجمعاً لها كل عناصر الأمومة التي تحملها هذه الكائنات، فشبهها باللقوة، والقطاة، وقرنها بالماء، وعنق النخيل وجناه، وبالغزالة، والشمس، فجاءت لوحتها غنية ومعبرة أصدق تعبير عن الأم الجميلة المخصبة المبدعة.

* أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** طالبة ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (22) العدد (15) 2000
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research –Arts and Humanities Science Series Vol. (22) No (15) 2000

Images de la maternité dans le portrait de la jument arabe.

Dr. Abdel-Karim YACOUB*
Malaké EID**

(Accepté le 19/11/2000)

❐ RÉSUMÉ ❐

Le thème jument a toujours occupé une grande place dans la poésie arabe. En contemplant cet animal, le poète arabe a voulu le représenter et le personnifier dans la plupart de ses poèmes en le dotant de sentiments humains.

Si le chercheur voit ces poèmes sous cet angle, il doit prendre en considération les différents symboles concernant l'image maternelle de la jument que le poète avait developpée dans ses textes. En fait, la poésie arabe présente la jument comme une inspiratrice et une force protectrice qui conduisent le poète à vaincre sa peur face à la nature, au désert et à la dureté de la vie.

Elle est également, cette mère qui se trouve menacée et triomphe toujours à la fin.

D'un autre côté, la poésie arabe n'hésite pas à attribuer à la jument des valeurs morales comme la dignité, la fierté, à ala s'ajoute l'affection. Elle devient le symbole de la fécondité: elle donne la vie à ses petits, les protège et porte chance à l'homme jahilite.

La poésie arabe, et pour mieux développer le thème de la jument, fait recours à d'autres images de la maternité, chez d'autres animaux. Elle est souvent comparée à Al-Kata (petit oiseau des régions désertiques), à l'aigle, à la gazelle et au soleil. Elle peut être identifée à l'eau, au bêchage des palmiers et à leur cueillette.

Ainsi, l'image de la meternité chez la jument s'est avérée riche de sens. sa richesse est d'une sincerité remarquable.

* Professeur au Département d'Arabe, Faculté des Letters et Sciences Humanies, Université de Techrine, Lattaquié, Syrie.

** étudéante en majestére Faculté de Letters Arabes l'université de Techrine Lattaquié, Syrie.

إن الحيوان الثاني الّذي اهتم به العربيّ اهتماماً كبيراً، لا بل فاقت عنايته به –في أوساط كثيرة– عنايته بالنّاقة، هو الفرس؛ لأنّه كان رفيقه في الحرب والصّيد، فأعزّه أيّما إعزاز، وفضّله على الأهل والولد، يقول ابن الكلبي: "وترتبط الخيل في الجاهليّة والإسلام، معرفة بفضلها، وما جعل الله تعالى فيها من العزّ، وتشرّفاً بها، وتصبر على المخمصة واللأواء، وتخصها وتكرّمها، وتؤثرها على الأهلين والأولاد، وتفخر بذلك في أشعارها، وتعتدّه لها[1]".

وحمّل العربيّ الفرس كلّ نزوعه النفسيّ والإراديّ لتجاوز كلّ عقبات الواقع وحواجز الكون والأعباء والهموم، فصوّرها بكل تفصيلاتها، وأعضائها ووقف عند كلّ عضو، وفصّل أيضاً في تصويره، وتشكيله للوحتها، فتحولت الفرس مزيجاً من الغزال، والباز، والقطا، والحجر، والشّحر؛ أي مزيجاً من عناصر ثابتة، وكائنات متحرّكة.

وارتبطت الخيل عند بعض القبائل الجنوبية بالشّمس البعيدة، شمس الشّتاء المرتبطة بالمطر، المختفية خلف السّحاب[2]، وتقدم بعضهم من الشّمس بتماثيل الخيل، لا بل رمزوا للشّمس بالفرس[3]، وبعض القبائل عبدها (الأسنديون) في البحرين[4].

ونلاحظ أن الفرس ارتبطت في ذهن العربيّ بالشّمس العالية البعيدة الجميلة، المختفية خلف السّحاب، والظّاهرة قليلاً، والبعيدة المنال، فهي معادل للفرس العزيزة في نفسه، التي تحمل العنفوان والكبرياء والجمال.

وجعل الشّاعر الفرس أيضاً رمزاً للأمومة وحمّلها معانيها اللّطيفة الجملية، فربطها أحياناً بأنثى الباز، وأحياناً بالقطاة، وأحياناً بعناصر الخصب الأخرى: "المطر والماء والموج، وعذق النّخيل وجناه"، وربطها أيضاً بالغزالة التي ترتبط بدورها بالشّمس.

وما يهمنا هنا هو الوقوف عند بعض النصوص التي تحمل فيها الفرس دلالات الأمومة.

فالشاعر لا يصف الخيل لمجرد الوصف، وإنما يعمد إلى ذلك عندما يريد أن يعتزّ بشبابه وقدراته ومغامراته، فتكون الخيل مكان عزته، ومعادلاً لانطلاقه، وحريته، وشبابه وقدرته على الفعل والتّجاوز، يقول امرؤ القيس[5]:

---

[1] انبساب الخيل: ص6.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج6/300-301 – موسوعة أساطير العرب ج1/286.

[3] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج6/169.

[4] فتوح البلدان: 79.

[5] ديوانه: 35-39:

لغيث من الوسمي: الغيث هنا البقل أو ما أنبته المطر – والوسمي: أول المطر – رائده: الرّجل الذي يرتاده، أي يطلبه لأهله – خال من الخلوة أي ليس فيه غيره – تحاماه أطراف الرّماح: أي تمنع عنه الرّماح – الجود: الغزير – عجلزة: فرس صُلبة اللّحم – أترز: أيبس وهذا يعني أنّها ضامرة وشديدة – الهراوة: العصا – ذعرت بها سرباً تصيّدت بهذه الفرس فدعت بها قطيع بقر نقيّاً جلوده: أي بيض الجلود – أكرعه موشية: أي فيها سواد وبياض – الخال: ضرب من برود اليمن – الصّوار: قطيع بقر الوحش – جمزى: اسم موضع – القرهب: فحل البقر المسن – الأخنس: القصير الأنف: القرار: الظّهر – الرّوق: القرن – فعادى عداء: والى وصرع واحداً بعد واحد – على بال: على حال اهتمام مني – الفتخاء اللينة الجناحين – اللقوة: السّريعة من العقبان – طأطأت: دانيت وخفضت ويقال أسرعت – الشّملال: الخفيفة السّريعة – تخطف خزّان الشّربة: أي تأخذها بسرعة – الخزان: الأرانب – حجرت منا ثعالب أورال: أي

وَقَـــدْ أَغْتَـــدي والطَّيـــرُ فـــي وُكُناتِهـــا ... لِغَيْـــثٍ مِـــنَ الوسْـــميِّ رَائِـــدُهُ خَـــالِ

تَحَامَـــاهُ أَطْـــرافُ الرِّمـــاحِ تَحَاميـــاً ... وجَـــادَ عَلَيْـــهِ كُـــلُّ أَسْـــحَمَ هَطَّـــالِ

بِعِجْلِـــزَةٍ قَـــدْ أَتْـــرَزَ الجَـــزْيُ لَحْمَهـــا ... كُمَيْـــتٍ كَأَنَّهـــا هِـــرَاوَةُ منْـــوالِ

ذَعَـــرْتُ بِهـــا سِـــرْباً نَقِيّـــاً جُلُـــودُهُ ... وأَكْرُعُـــهُ وَشْـــيُ البُـــرُودِ مِـــنَ الخَـــالِ

كَـــأَنَّ الصُّـــرَارَ إِذْ تَجَهَّـــدَ عَـــدْوَهُ ... علـــى جَمَـــزَى خَيـــلٍ تَجُـــولُ بـــأَجْلالِ

فَعَـــادَى عِـــدَاءً بَـــيْنَ ثَـــوْرٍ ونَعْجَـــةٍ ... وكَـــانَ عِـــدَاءُ الـــوَحْشِ مِنِّـــي علـــى بَـــالِ

كَـــأَنِّي بِفَتْخَـــاءِ الجَنَـــاحَيْنِ لَقْـــوَةٍ ... صَـــئُودٍ مِـــنَ العُقْبَـــانِ طُلْطَـــأَتُ شَـــمْلالِ

تَخَطَّـــفُ خِـــزَّانَ الشَّـــرَبَّةِ بالضُّـــحَا ... وقَـــدْ حَجَـــرَتْ مِنْهـــا ثَعَالِـــبُ أَوْرَالِ

كَـــأَنَّ قُلُـــوبَ الطَّيْـــرِ رَطْبـــاً ويابِســـاً ... لَـــدَى وَكْرِهَـــا العُنَّـــابُ والحَشَـــفُ البَـــالِي

فَلَـــوْ أَنَّ مَـــا أَسْـــعَى لأَنْنَـــى مَعِيشَـــةٍ ... كَفَـــانِي -ولَـــمْ أَطْلُـــبْ- قَلِيـــلٌ مِـــنَ المَـــالِ

ولكنَّمَـــا أَسْـــعَى لِمَجْـــدٍ مُؤَثَّـــلٍ ... وقَـــدْ يُـــدْرِكُ المَجْـــدَ المُؤَثَّـــلَ أَمْثَـــالِي

ومَـــا المَـــرْءُ مادامَـــتْ حُشَاشَـــةُ نَفْسِـــهِ ... بِمُـــدْرِكِ أَطْـــرافَ الخُطُـــوبِ ولا آلِ

يعرض الشّاعر في هذا النّصّ لواحدة من مغامراته في الصيد، فيجهز لها فرساً (عجلزة)، يجمع فيها كلّ صفات القوّة والصّلابة والشّدة والضخامة والغلظ؛ لأنّه يريد لهذه الفرس الأم المعشوقة أن تكون ناضجة وضخمة تستحق هذا العشق.

ويجعل الشّاعر فرسه كميتاً ليس فقط للتّعبير عن قوّتها، ولا للتعبير عن لونها وحسب، بل لأن الكمتة لون الخمر، وقال إنّها كميت تحويلاً لها إلى خمر، وتعبيراً لاشعورياً عن تلك اللّذة التي تحققها في الخروج إلى الصّيد، إنّها -تماماً- كلذة شرب الخمر.

ونشير هنا إلى أن الخمر في الفكر العربيّ، وتصورات الذّهنية العربيّة أنثى معشوقة، وهي أنثى فاعلة فيه، وقادرة على إثارة اللّذة، وعلاقته بها علاقة عشقيّة، وأقرب ما تكون إلى الجنسية أيضاً.

وبعدها يقول عن الفرس (كأنّها هراوة منوال)، ولا يخفى هنا تلميح الشّاعر إلى قدرة الفرس الأمّ على تحقيق فعل التّجاوز والإبداع، فهي في نظره (عصا منوال) عصا نساج، ومن ثمّ محاولته ربطها بالحضارة، فهي أداة من أدوات الحضارة والتّطور، وهذا ما أرادته الدّكتورة سوزان ستيتكيفيتش في قولها: "وترى في الصيد وفي تغلب الفرس على البقر الوحشي تغلب للحضارة على الطّبيعة، وليس ذلك إلاّ عكس الانقلاب المتناسق في عملية الانقطاع: أي تغلب الكائنات الطّبيعية عن طريق التّشبيه دليل على الحضارة، فتوصف دماء البقر الوحشي مسفوكة على وبر الفرس بأنّها حنّاء على شيب، أي على ما يدلّ على تجديد الحياة بوسيلة عمليّة حضارية"[1].

اختفت ثعالب هذا الموضوع ولم تسرح خوفاً من العقاب – والشّربة وأورال: موضعان. العناب: الزفيرف وهو التمر ورديئه – المؤثل: المثمر الذي له أصل وهو الكثير.

[1] القصيدة العربية وطقوس العبور: 78-79.

يخيف الشّاعر بهذه الفرس التي هذه مواصفاتها سرب بقر الوحش الموشّى والمخطط، وهي تركض بينه وتفرقه، وتخيفه، كأنّها (فتخاء الجناح) لقوة صيود.

ونلاحظ هنا أن الشّاعر يحوّل الفرس طائراً له جناحان ليستكمل لها القدرة على الفعل، وليحافظ على تصوره عنها، فهي أمٌّ صيود، تخافها الثّعالب فتختفي.

ويشير بعد ذلك إلى أن حول خباء هذه اللّقوة الكثيرة من قلوب فرائسها، فهي لا تصطاد بفعل، إنّما تصطاد من أجل فراخ صغيرة تعيلها.

هذه هي فرس امرئ القيس التي تشبه اللّقوة في قدرتها على الفعل، وتجاوز الواقع بكلّ ما فيه من إحباط، فسعي امرئ القيس ليس للعيش فقط، أو (لأدنى معيشة)، إنّما هو سعي للمجد المؤثّل، والشاعر يقول: إنّه ربّما يدركه، ويصل إليه، لأنّه يمتلك تلك الفرس الأم القادرة على تجاوز الصّعاب، ولِمَ لا وهو ابن ملك؟!!.

وهذا ما يدفعنا إلى القول: إن الفخر الذي لاحظناه في القصيدة ليس فخراً خالصاً، إنّما يشوبه الكثير من الحزن والقلق، فنفس امرئ القيس مليئة بالإحباط، وهذا ما يوضحه البيت الأخير الذي تحوّل حكمة:

"وما المَرْءُ ما دامتْ حُشاشةُ نفسِهِ بمُدْرِكِ أطْرافَ الخُطُوبِ ولا آلِ"

فالفرس في النّصّ رمز للأمّ المبدعة: /الفرس: الخمرة، والفرس اللّقوة/، ورمز للأمّ القادرة على التّخطي والتّجاوز.

وهنا نتفق مع الدكتور وهب روميّة في أنّه "لم يكن المحارب الجسور فينيقياً، كما في الأسطورة المعروفة، ولكنّه كان جواداً"[1] في أسطورة القصيدة التي أبدعها امرؤ القيس، كان مسكوناً بهاجس القوّة، ويعلم علم اليقين أنّها وحدها القادرة على إثبات الذّات، وترسيخ الإيمان، فاندفع يحصّن نفسه في غفلة من الدّهر.

وفي تحوّلات أخرى للفرس يحوّلها الشّاعر قطاة سريعة الطّيران، يتبعها العقاب، ويحاول اصطيادها، ولكنّها تنجو منه بطيرانها السريع، يقول زهير بن ابي سلمى[2]:

لَقَدْ لَحِقَتْ بِأَلى الخَيْلِ تَحْمِلُنِي كمَّا تَذَاءَبَ لِلْمَشْبُوبَةِ الفَزَعُ

---

[1] شعرنا القديم والنقد الجديد: 235.

[2] شعره: 246-249.

تذاءب: جاء من كلّ جانب – المشبوبة: الحرب المضرمة – الفزع: الخوف – الكبداء: الضّخمة الوسط من الخيل – الوركاء: العظيمة الوركين – القوداء: الطّويلة العنق – استعرضتها: نظرت إليها عرضاً – الخضع: ميل العنق والرأس إلى الأرض، ويكون في الخيل إذا اشتدّ عدوها – تردي: تعدو راجمة الأرض بحوافرها – المطمئنات من الحوافر: التّامة الواسعة ليست بمقعبة فهي تطمئن في مواقعها من الأرض – المواطئ: الحوافر – مران اسم موضع – القطاة الجانئة: التي تدني صدرها من الأرض – السّرب: جماعة القطا – السّرع: السّرعة – الأعداد: جمع عدّ وهو الماء الدّائم الذي لا ينقطع – راعها: أفزعها – الحفيف: صوت جناحي الصّقر – العاقص من الصّقور: الذي عطف عنقه ولواها – الأمغر: الأحمر ليس بناصع الحمرة – المنصلت: السرع في مضيه – السّقع: سواد في حمرة – المستجمع: الشديد غير المنتشر الموزع – الجانحة: المائلة المنحية من شدّة طيرانها – مختضع: يمدّ رأسه وعنقه لأخذ القطاة – المرقب: الموضع المشرف – الخلقاء: الصخرة الملساء – الحجن: المعوج – الجونيّة: السّوداء البطن والجناحين – تتدع: تدخر وتخفي – المرجّى: المؤمل – أوشك: أسرع – الصّلك: الضّرب بالجناحين – المؤثلي: المبطئ، المقصر – النجاء: السرعة – الرّوع الحرب – تمتزع: تسرع.

كَبْـــدَاءُ مُقْبِلَـــةٌ ورَكْـــاءُ مُـــدْبِرَةٌ ... قَـــوْدَاءُ فيهـــا إذا استعرضْـــتَها خَضَـــعُ

تُـــرْدِي علـــى مُطْمَئِنَّـــاتٍ مواطِئُهـــا ... تَكَـــادُ مِـــنْ وَقْعِهِـــنَّ الأرْضُ تَنْصَـــدِعُ

كأنّهـــا مِـــنْ قَطَـــا مَـــرَّانَ، جانِئَـــةٌ ... فالجِـــدُّ منهـــا أمَـــامَ السَّـــرْبِ والسَّـــرَعُ

تَهْـــوي كَـــذَلِكَ، والأغْـــدادُ وجْهَتُهـــا ... إذْ راعَهـــا، لِخَفِيـــفٍ خَلْفَهـــا، فَـــزَعُ

مِـــنْ عَـــاقِصٍ، أمْغَـــرِ السَّـــاقَيْنِ، مُنْصَـــلِتٍ ... فِـــي الخَـــدِّ مِنْـــهُ إذا اسْـــتَقْبَلْتَهُ سَـــفَعُ

مُسْـــتَجْمِعٍ قُلُبَـــهُ طُـــرْقٍ قَوائِمُـــهُ ... يَـــدْنُو مِـــنَ الأرْضِ طَـــوْراً، ثُـــمّ يرتفِـــعُ

أهْـــوى لَهـــا، فاتّقَـــتْ كـــالطَّرْفِ جَانِحَـــةً ... ثُـــمّ اسْـــتَمَرّ عليهـــا وهْـــوَ مُخْتَضِـــعُ

مِـــنْ مَرْقَـــبٍ، فِـــي ذُرى خَلْقَـــاءَ، راسِـــيَةٍ ... حُجْـــنُ المَخَالِـــبِ، لا يَفْتَالُـــهُ الشَّـــبَعُ

جُونِيَّـــةٌ، كَقَـــرِيِّ السَّـــلْمِ، واثِقَـــةٌ ... نَفْسَـــاً بِمـــا سَـــوفَ تُولِيْـــهِ وتَتَّـــدِعُ

مـــا الطَّـــرْفُ أسْـــرَعُ منهـــا حـــين يَرْعَبُهـــا ... جِـــدَّ المُرَجَّـــى، فَـــلا يَـــأسٌ، ولا طَمَـــعُ

حَـــثَّ عليهـــا بِصَـــكٍّ، لَـــيْسَ مُؤْتَلِيَـــاً ... بَـــلْ هُـــوَ لأمْثَالِهـــا، مِـــنْ مِثْلِـــهِ يَـــدَعُ

كَـــذَاكَ تِيـــكَ وقَـــدْ جَـــدَّ النَّجـــاءُ بهـــا ... والخَيْـــلَ تَحْـــتَ عَجَـــاجِ الـــرَّوْعِ تَمْتَـــزِعُ

يشير الشّاعر منذ البدء إلى أنّه استطاع بفرسه أن يلحق بأوائل الخيل، وذلك عندما اشتدت الخديعة، وازداد المكر، وأداته في ذلك كلّه، التي استطاع أن يتجاوز بها واقع الضّعف والجبن والخديعة هي الفـرس الأمّ، التي من صفاتها أنّها (كبداء) عظيمة الوسط في أقبالها وإدبارها، لهذا قال: "كبداء مقبلة، وركاء مدبرة"، هذه الصّفات من صفات الأمّ المرأة، يحشدها الشّاعر للفرس ليؤكد هذه العلاقة الجدلية بينه هو الذكر، وبينها هي الأنثى، العلاقة المبدعة الخلاقة.

ويجعلها بعد ذلك (قوداء) سلسلة القيادة، لكثرة تدريبها وتمرينها وتطويعها، فهي معدّة إعداداً كبيراً، وطوع إرادة الفارس، وهذا ما يؤكد مرونتها وسلاستها لصاحبها.

وهي تسير سيراً شديداً تتصدع الأرض منه، تشبه في ذلك قطاة من قطا مرّان، مسرعة في طيرانها أمام سربها، يغير عليها عقاب (عاقص) سيئ الخلق (أمغر السّاقين) قويّهما، (منصلت) شديد، فيه حدّة فـي الوجه وسواد، فكلّ صفاته توحي بالقوّة والخوف، يحاول اصطيادها بكلّ قوّته، فيدنو من الأرض ثمّ يرتفـع، وبعدها يهوي عليها، فتجد في الطّيران، وتسرع كرجفة الطّرف، فيتابعها، ويحاول اللحاق بهـا مجـدّاً فـي طيرانه، ويهوي عليها من قمة عالية محنيّ المخالب، لا يمنعه من ذلك غلظ ساقيه، ولكنّها تتجاوز، وتسرع، كأنّها شجرة تقف في وجهه، واثقة من أنها ستنجو وتنتصر عليه، فإغماضة الطّرف ليست بأسرع منها حين يفاجئها، وتخاف منه، ولكنها تسرع، ولا تيأس، ولا تطمع، حتّى إذا استطاعت أظفاره الإمساك ببعض ريشها، وكاد ما تخشاه يقع، فجأة تتحلحل، وتطير من جديد بعيداً عنه، وهذا ما يكون لأمثالها من مثله، فهذه القطـاة هي فرسه، وقد أخذت تسرع لتحقق لنفسها الخلاص ولراكبها في غمرة المعركة عندما أخـذ الفـزع يأخـذ بمجامع القلوب.

فالقطاة هنا رمز الحياة الهادئة اللّطيفة، التي تهتدها الأهوال والصّعاب، ولكنّها تنتصر في النّهايـة، فتصبح الفرس الأم رمزاً للحياة الهائئة التي لا تسلم من الأهوال.

والشاعر –على الرغم من كل الأهوال والصعاب– يحرص على حماية هذه الحياة التي تحمل في طياتها عناصر الأمومة النّقية الجملية. ثمّ إنّ في ربط الفرس بالقطاة إلحاحاً على عناصر الأمومة والحياة فيها.

وفي مواضع أخرى يبرز الشّاعر الجاهليّ في فرسه رموز العتق والنّجابة والأصالة، ورموز الجمال والعزة والكبرياء والأخلاق الحميدة التي يعتدّ بها العربي، يقول علقمة الفحل[1]:

وقَدْ أُقُودُ أَمامَ الحَيِّ سَلْهَبَةً ... يَهْدي بِها نَسَبٌ في الحَيِّ مَعْلُومُ

لا في شَظاها ولا في أَرْساغِها عَتَتٌ ... ولا السَّنابِكُ أَفْناهُنَّ تَقْليمُ

سُلَّاءَةٌ كَعَصا النَّهْدِيِّ غُلَّ بِها ... ذُو فَيْئَةٍ مِن نَوى قُرَّانَ مَعْجُومُ

تَتْبَعُ جُوناً إِذا ما هُيِّجَتْ زَجِلَتْ ... كَأَنَّ نُقًّا على عَلْياءَ مَهْزُومُ

يَهْدي بِها أَكْلَفُ الخَدَّيْنِ مُخْتَبِرٌ ... مِن الجِمالِ كَثيرُ اللَّحْمِ، عَيْثُومُ

إِذا تَزَغَّمَ مِنْ حافاتِها رُبَعٌ ... حَنَّتْ شَغامِيمُ في حافاتِها كُومُ

يجمع الشّاعر لفرسه كلّ صفات الجمال، فهي (ماضية وطويلة)، نسبها واضح، فهي من الخيول الكريمة، ليس فيها عيب لا في أقدامها، ولا في أرساغها، فهي جميلة الخلقة والطلعة، وهي تتبع [الجون] الشّمس، ثمّ هي ممدودة كالنّخلة، وارتباط الفرس بالشّمس والنّخلة، يعني ارتباطها بالخصب والأمومة، فالشاعر حريص على إبراز هذه العناصر فيها.

وهي تسرع، وإذا ما تعبت أصبحت كـ(دفٍّ) مهزوم، أي تعبة تصدر صوتاً بعيداً من جوفها، يدلّ على شدّة ما لاقت من عنت وتعب.

ونشير هنا إلى أن الفرس إذا حنّت، حنت من كل جوانب جسدها، وهنا تغدو رمزاً للحنين والعطف، إلى جانب أنّها في الأصل رمز لمكارم الأخلاق ورمز للقيم الرفيعة.

وترمز الفرس رمزاً صريحاً للأمومة الدّائبة الحانية في هذه الأبيات التي قالها الأعشى[2]:

والقَارِحِ العَدَوا وكُلِّ طِمِرَّةٍ ... ما إنْ تَنَالُ يَدُ الطَّويلِ قَذَالَها

وكَأَنَّما تَبَعُ الصُّوارُ بِشَخْصِها ... فَتْخَاءُ تَرْزُقُ بالسُّلَيِّ عِيالَها

طَلَباً حَثِيثاً بالوَلِيدِ تَبُزُّهُ ... حَتَّى تَوَسَّطَ رُمْحُهُ أَكْفَالَها

في هذين البيتين تتحوّل الفرس الأمّ السّريعة التي تطارد قطعان بقر الوحش عقاباً تسعى لرزق صغارها الضّعاف الذين خلفتهم خلفها في وادي السّليّ.

والشاعر في تشبيه الفرس بالعقاب الأمّ حريص على إظهار عناصر الأمومة الحانية المعطاء فيها.

---

[1] ديوانه: 73–76.

السّلهبة: الماضية – يهدي: يقدمها – الجون= الأسود الحمومي، والجونة: الشمس – التّزغم: حنين خفي – العيثوم: الكثير اللّحم – الشغاميم: الطوال الحسان – حافاتها: نواحيها – الكلفة: حمرة فيها سواد – الكوم: العظم في كلّ شيء.

[2] ديوانه: 65.

القارح: بارز النّاب – طمرّة: الخفيفة الوثابة – القذال: جماع مؤخر الرأس – الصّوار: قطيع البقر – فتخاء: عقاب فتخاء لينة الجناح – السّلي: واد دون حجر – حثيثاً: سريعاً – تبزه: تغلبه – الكفل: العجز.

وهي لا تزال تجري بالوليد الذي فوق ظهرها، حتى يدرك طريدته، ويطعنها برمحه، فيصيبها في عجزها، فهي تتصف بالسّعي الحثيث، والجهد الدّؤوب للوصول إلى هدفها، فتصبح رمزاً للأمومة الحانية المجتهدة الدؤوبة.

وفي أمكنة أخرى ترتبط الفرس بجذع النّخلة، فتكون رمزاً للخصب، وتتحوّل بارزاً أرزق يحلق بحمامة ضعيفة، يقول الأعشى[1]:

وكُلُّ كُمَيْتٍ كَجِذْعِ الخِصا ... بِ يَرْنُو القِناءَ إذا ما صَفَنْ

أضَافوا إليهِ فألوى بهِمْ ... ثُقُولٌ جُنُوناً ولمّا تُجَنْ

فَلأْيٍ بِلأْيٍ حَمَلْنا الغُلا ... مَ كَرْهاً فأرْسَلَهُ فامْتَهَنْ

كأنَّ الغُلامَ نَحا للصُّوا ... رِ أزْرَقَ ذا مِخْلَبٍ قَدْ دَجَنْ

يُسَافِعُ وَرْقاءَ غُورِيَّةً ... لِيُدْرِكَها في حَمامٍ ثُكَنْ

ترتبط الفرس هنا بجذع الخصاب، وترتبط بالخصب الدّائم، وعندما تتحوّل عقاباً أزرق ذا مخلب، يلاحق حمامة ضعيفة ليصطادها، يتحوّل الرّمز لتصبح الفرس رمزاً للموت والقدر الذي يأتي على الحياة الجميلة الهانئة التي تمثّلها الحمامة.

يرتبط النّصّ كما نلاحظ بالتّقاليد النمّطيّة النّموذجيّة، كما يشير الدكتور مصطفى حداد[2]، لكنّه يخضع لبعض الانزياح (إذ تصير الفرس رمزاً للقوّة، والافتراس، وسطوة الدّهر، وتصبح الحمامة رمزاً للحياة الهانئة التي يلاحقها الدّهر، ويتربص بها الموت.

وفي نصّ آخر تغدو الفرس الأمّ رمزاً للخصب والعطاء الدائمين، عندما ترتبط بالماء، فضلاً عن أنّها ترمز للأمومة الحانية، لأنها ترتبط بالقطاة فهذان الرّمزان الواضحان في شخص الفرس يجتمعان، ويبرزان جليّاً، يقول النّابغة[3]:

---

[1] ديوانه 57.

الكميت: الأحمر الذي يضرب إلى السواد – الخصبة: النخلة الكثيرة الحمل – القناء: الرّماح – الصّافن: القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر – ضاف إليه: مال وأسرع وعدا – ألوى به: ذهب – لأي: أبطأ واحتبس – واللأي: البطء والشدة – امتهن الشيء: ابتذله – أزرق: باز – دجن بالصيد: اعتاده – سفع الطائر الجارح: ضربته، لطمه – ورقاء: حمامة في وكنها.

[2] رمزية الأنثى في الشعر الجاهليّ: 147.

[3] ديوانه: 176–178.

كبداء: ضخمة الوسط – شنج: نقص في الرّجلين – الطّنب: يكون فيهما استرخاء وطول – كُدرية: قطاة – حذاء: خفيفة، سريعة، قصيرة الذّنب – ويقال أمرٌ أحذ: إذا كان سريعاً – ومرّان: ماء – الشّرائع: شرائع المياه والمواضع التي تُورَد – الشّربة: ماء يكون حول الشجرة – أمغر الساقين: صقر أو باز – وأمغر لون ساقية إلى المغرة وذلك أيام الرّبيع – خرطومه: منقاره – مختضع: مائل برأسه إلى الأرض – نحت: قصدت – إبطاؤها: لرجع العين: أي سريعة الطّيران – الجؤجؤ: الصدر – حذاء: خفيفة قصيرة الذّنب – سكاء: لا أذن لها – النوطة: الحوصلة – أزيغب، تصغير أزغب وهو الفرخ الصغير – المجاجة: مجّت في – ظمئها: وقت شربها – منهرت: واسع – التّسْبيد: حين يطلع الريش بعد حلقه في موضع آخر – الذبب: كثرة الريش.

لَقَـــدْ لَحِقَـــتْ بـــأُولى الخَيْـــلِ تَحْمِلُنـــي ... كَبـــداءُ لا شُـــنَجٌ فيهـــا ولا طَنَـــبُ

أوْمَـــرَّ كُدْرِيَّـــةٍ حَـــذّاءَ هَيْجَهـــا ... بَـــرْدُ الشَّـــرَائِعِ مِـــنْ مَـــرَّانَ أوْ شَـــرَبُ

أهْـــوى لَهـــا أمْغَـــرُ السَّـــاقَيْنِ مُخْتَضَـــعٌ ... خُرْطُومُـــهُ مِـــنْ دِمـــاءِ الطَّيْـــرِ مُخْتَضِـــبُ

حَتَّـــى إذا قَبَضَـــتْ أظْفَـــارُهُ زَغَبـــاً ... مِـــنَ الـــذَّنَابَى لهـــا أوْ كـــادَ يَقْتَـــرِبُ

نَحَـــتْ بِضَـــرْبٍ كَرَجْـــعِ العَـــيْنِ أبْطَـــؤُهُ ... تَعْلُـــو بِجُؤْجُئِهـــا طَـــوراً وتنقلِـــبُ

حَـــذَّاءُ مُـــذْبِرَةٌ، ســـكَّاءُ مُعْبِلَـــةٌ ... لِلْمـــاءِ فِـــي النَّحْـــرِ منهـــا نُوطَـــةٌ عجِـــبُ

تَـــدْعُو القَطـــا وبِـــهِ تُـــدْعَى إذا انتَســـبَتْ ... باصِـــدْقِها حِـــينَ تَلْقاهـــا فَتَنْتَسِـــبُ

تَسْـــقِي أُزَيْغِـــبَ تَرْوِيـــهِ مَجَاجَتُهـــا ... وذاكَ مِـــنْ ظِمْئِهـــا فِـــي ظِمْئِـــهِ شُـــرُبُ

مُنْهَـــرِتِ الشِّـــدْقِ لَـــمْ تَنْبُـــتْ قَوادِمُـــهُ ... فِـــي جانِـــبِ العَـــيْنِ مِـــنْ تَسْـــبِيدِهِ زَبَـــبُ

تبدو اللّوحة في غالبها مائية، يسودها الماء الذي هو رمز للحياة والخصب، إنّه يخرج من كلّ مسامٍ جلد الفرس عرقاً، وهي في انقضاضها ترتبط بالماء، فيشبّه انقضاضها هوي دلاة البئر، وهذا تأكيد لعناصر الخصب فيها، فهي دائماً رمز الخصب.

وتظهر الفرس الأمّ هنا ضخمة بغير طول أو استرخاء، تامة الخلق، خفيفة في عدوها، سريعة.

ثمّ يجعلها في سرعتها قطاة أثارها الطّعام والماء البارد، ولكن فاجأها الصّقر القويّ السّاقين، وحاول اصطيادها، وهي في طريقها، وعندما تصل مخالبه إلى ريشها، أو تكاد تقترب منه تطير مسرعة كلمح البصر، وتصيح طالبة القطاة لتنسب إليه، وتعود إلى سربها –فالقطا هنا رمز الانتماء– وعندما تصل إلى العش، تسقي فرخاً صغيراً ضعيفاً ظمئاً، راح يفتح شدقيه طالباً الماء، فتسقيه ما في حوصلتها منه.

فالفرس في البدء كانت رمزاً للخصب والخير، ثمّ اصبحت رمزاً للأمّ الخائفة المذعورة، وللحياة السّعيدة الهانئة المهدّدة بالمآزق والصّعاب المتمثّلة بالصقر أو الباز، ولكنّها تنتصر عليه –كما رأينا– بأن تنجو منه.

فينتصر الشّاعر في أبياته لبراءة الحياة وجمالها وروعتها، وهو لا يرمي إلى تصوير السرعة كما يشير الدكتور مصطفى ناصف: "إنما يريد الصّراع من أجل البقاء، ويصور الأمومة الحانية الرّؤوم تسقي أزيغباً، ترويه مجاجتها، وهذه الطّفولة الضّعيفة المغلوبة على أمرها، فيكاد ينقل إلينا عدوى الإحساس بالشفقة والتّعاطف"[1].

وفي مكان آخر نجد الخنساء تربط الفرس بالمطر، وتجعلها تفتش عنه، وتبشر به، تقول[2]:

وحَسْـــنَاءَ فِـــي القَـــوْمِ مَنْسُـــوبَةٍ ... تُكَشِّـــفُ عَـــنْ حاجِبِيهـــا السَّـــبِيلا

---

[1] شعرنا القديم والنقد الجديد: 317.

[2] ديوانها: 258–253.

استطف الأمر: علاه، وشدّ مناكب الفرس بالسّرج – جرى أجاريها: أي أجراها فنوناً في الجري، وأدرك كلّ ما عندها من العدو – النّاضحون: أصحاب النّاضح – والنّاضح: البعير يستقى عليه – الذّنوب: الدّلو مليء ماء، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب – الغيث: المطر الشديد المطبق.

فَشَـــــدَّ مناكبَهـــــا مُقْصِـــــراً يُبادِرُهـــــا يَسْـــــتطِفُّ الرُّكوبـــــا

فـــــأجْرى أجاريهـــــا كُلّهـــــا ومِـــــنْ كُـــــلِّ جِـــــرْيٍ تُلاقِـــــي نصِـــــيبا

فَلَمَّـــــا عَلاهـــــا اســـــتَمرّتْ بـــــهِ كمـــــا أفْـــــرَغَ النَّاضِـــــحُونَ الـــــذَّنُوبا

فَـــــراحَ يُبَشِّـــــرُ أصْـــــحابَهُ تَبَطَّنْـــــتَ يـــــا قـــــومُ غَيْثـــــاً خصـــــيبا

تبدو الفرس في الأبيات الأمّ المنسوبة الحسناء الكريمة النّسب، الجميلة الطّلعة، مهيأة لتكون فاعلة مبدعة في التّفتيش عن الخير والخصب، وهذا الدّور جدير بها، فهي ترمز للخصب، وتحمله في ذاتها، وتسير، ضاربة سنابكها بالأرض، مستطلعة الغيب، فتغدو رمزاً للتّبصّر والبحث.

وتستمرّ الفرس /الأمّ في بحثها راكضة بسرعة، وتدفق يشبه تدفق الماء من الذّنوب، فهي تبحث عن الخصب، وهي مرتبطة به. وعندما تجده يعود فارسها ليبشر أصحابه به، فتغدو الفرس الأمّ هنا رمزاً للخصب الدائم، تحويه في كيانها، وترتبط به ارتباطها بالماء، وتبشّر به، لهذا أصبحت رمزاً للخصب والخير، ومبشّرة به.

وتتحوّل الخيول الأمهات –أحياناً– طيوراً خضراء تخرج من الرّعد، لأنّها مرتبطة بالمطر ارتباطاً كبيراً، يقول دريد بن الصّمة الجشمي[1]:

وخَيْـــلٍ كأسْـــرابِ القَطـــا قـــد وزَعْتُهـــا علـــى هَيْكَـــلٍ نَهـــدِ الجِـــزَارَةِ مُرْمَـــدِّ

سَـــوابِقُها يَخْـــرُجْنَ مِـــنْ مُنتصَـــفٍ خُرُوجَ القَـــوارِي الخُضْـــرِ مِـــنْ سُـــبُلِ الرَّغْـــدِ

الفرس –هنا– (نهد الجزارة) مرتفع وضخم ومرمدّ، استطاع أن يزجر خيولاً كثيرة متجمّعة على الماء، كأنّها أسراب قطا في كثرتها وتجمعها.

والشاعر إذ يشبهها بأسراب القطا يشير إلى عناصر الخصب فيها. و عندما تخرج من الماء على أثر الكف والمنع والزّجر، تخرج خروج طيور الشّقراق الخضر من الرّعد، فالخيل هنا تخرج من المطر، وترتبط به ارتباطاً مباشراً، تأكيداً من الشّاعر على عناصر الخصب فيها، ولهذا يتيمنون بها، ويتفاءلون تيمّنهم بطيور الشّقراق.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أنّه في الأبيات أسطورة منزاحة، فبدل أن تخرج الخيل من البحر كما في أسطورة الخيول الخضر التي خرجت من البحر لسيدنا سليمان، تخرج من الرّعد، وهذا لا يغيّر في الأمر شيئاً، فهي في كلا الحدثين تخرج من المياه، فالرّعد والبحر رمزان من رموز الخصب والحياة وكلاهما يحمل الماء، أو البشرى به، والماء رمز الحياة والبعث والتّجدّد، وأن تخرج الخيول من الرّعد يعني أن ترتبط بالخصب، فالفرس الأم رمز للخصب والحياة والتّجدّد.

نستخلص مما سلف أن الفرس الأم استطاعت تحقيق فعل التّجاوز والإبداع عندما ارتبطت بالخمر، وبعصا المنوال، فأصبحت أداة من أدوات الفعل والتّطوّر الحضاريين.

---

[1] ديوانه: 55.

هيكل: الفرس الطويل – نهد الجرارة: غليظ اليدين والرجلين – النّهد: الضّخم – الجزارة: قوائم البعير – مُرْمَدّ: أرمد والامداد: سرعة السير – سوابقها: أي الخيل المتقدمة منها – المنتصف: الأرض الرّحبة التي فيها شجر – القواري: جمع قاريّة: والقارية طائر قصير الرجلين طويل المنقار أخضر الظهر تحبّه العرب وتتيمّن به، وقيل القاريّة من السّودانيات – السبل: المطر وقيل المطر بين السّحاب والأرض حين يخرج من السّحاب، ويصل إلى الأرض.

وعندما حوّلها الشّاعر لقوة تطعم الصّغار، تبيّن فيها عناصر الأمومة التي تسعى من أجل استمرار الحياة وبقائها نضرة جميلة، فالحياة محصّنة وممنّعة بقوّة هذه الفرس الأمّ.

والشاعر عندما يحوّلها قطاة يركّز فيها صفات القوّة والقدرة على النجاة، وتجاوز العقبات، والصّعاب والأهوال، فتصبح عصية على فعل الدهر القاسي المدمّر، هذا فضلاً عن أنّ الفرس أمّ حانية مجتهدة دؤوب تسعى لرزق الصّغار.

ولا يكتفي الشّاعر بهذه التّحوّلات، إنما يعمد إلى تحويلها تحويلاً آخر، هو تحويلها عقاباً قوياً يلحق بحمامة ضعيفة، فتتحوّل الفرس من أمّ خيّرة معطاء إلى رمز للشّر، ولقوة الدّهر العاتية التي تسعى للقضاء على الحياة، ولكن الشّاعر هنا ينتصر للحياة، ولا يتيح الفرصة للعقاب: (القدر) القضاء عليها، والإساءة إليها.

وعندما يربط الشّاعر الفرس الأمّ بالقطاة التي تسعى إلى الحياة الجميلة، يفاجئها الصّقر، ويمنعها من الوصول إلى هدفها، تنفر منه، وتطير بأقصى سرعتها، محاولة الالتحاق بسربها، فتصبح عندها رمزاً للانتماء والتوّحد بالجماعة، الأمر الذي يؤهّلها للقيام بأعمال نبيلة ورائعة، كإنقاذ صغير من الموت، بكثير من الشّفقة والعطف والحنان.

والفرس الأمّ تبشر بالخصب، لأنّها رمز له، تكنّه في حناياها، وتصدر عنه في كل فعل من أفعالها.

هذا فضلاً عن أنّها تحمل دلالات أسطورية ودينية عندما ترتبط بالماء، فتخرج منه أو من عنصر من عناصره، أو مصدر من مصادره، فتعبر عندها عن تصورات العربيّ عن الخصب والأمومة، وتفاؤله بهما، فهما كلّ أمانيه، وكلّ رغباته في ذلك العالم الصّحراويّ المجدب.

من هنا يمكننا القول أخيراً: إن الفرس تختصر في ذاتها كلّ أغراض الأمومة، وكلّ قدراتها المبدعة.

References المراجع

[1]- ديوان الأعشى، تحقيق وشرح محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجمامين 1950 المطبعة النموذجية – مصر.

[2]- ديوان امرئ القيس، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة 1969م.

[3]- ديوان الخنساء، تحقيق أنور ابو سويلم، جامعة مؤتة، الأردن: عمّان، دار عمّار 1988م.

[4]- ديوان دريد بن الصمّة الجشمي، تحقيق د. محمد خير البقاعي، دار قتيبة دمشق – 1981م.

[5]- ديوان علقمة الفحل، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب. الطبعة الأولى 1389هـ-1969م.

[6]- رمزيّة الأنثى في الشعر الجاهليّ، رسالة دكتوراه، د.مصطفى حداد، بإشراف د.محمود علي مكّي، جامعة القاهرة 1995-1996م.

[7]- شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق د.فخر الدين قباوة، بيروت، دار الآفاق الجديدة 1400هـ-1984م.

[8]- شعرنا القديم والنقد الجديد، مجلة عالم المعرفة الكويتية، الكويت العدد 207 آذار 1996م.

[9]- فتوح البلدان، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق دي خوي بريل الطبعة الثانية 1968م.

[10]- القصيدة العربية وطقوس العبور، سوزان ستيتكيفتش، جامعة شيكاغو، مجلّة مجمع اللغة العربية، دمشق مجلد 6، يناير أكتوبر 1985م.

[11]- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة بيروت 1996م.

[12]- موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، د.محمد عجينة، دار الفارابي، بيروت: لبنان، الطبعة الأولى 1994م.